فترات متأخرة، كانت أشبه بالنص الناقص؛ اذ آثرت الرمز وولعت بالغربة، واستعذبت التيار الوجودي. وأبرز مثال على ذلك هو رواية «ستة أيام» لحليم بركات في بداية الستينات؛ ثمّ بعض الروايات التي أُصدرت في الاردن لكل من عيسى الناعوري «بيت وراء الحدود» وعبدالحليم عباس «فتاة من فلسطين»، وغيرهما، ممّا يفتقد الى الوعي التعبيري، فضلاً عن فقدان النظرة الثاقبة الى قضية قومية مثل قضية فلسطين. كما ان أغلب أولئك كانوا ينتمون الى فلسطين، سواء الذين هاجروا الى الضفة الفلسطينية عقب نكبة العام ١٩٤٨، أو الذين عرفوا الهجرة الفلسطينية عن قرب، فحاولوا التعبير عنها كرد فعل للحظة. وفي جميع الحالات، نظل ازاء وعي باهت خافت، لا يدرك خطورة القضية في ذلك الوقت المبكر؛ في حين ظل يردد في المعسكر الآخر، حتى اليوم، ان فلسطين تظل هي الاسم ـ أو يجب ان تكون كذلك ـ للعرب في صراعهم ضد الصهيونيين.

وكان لا بد ان يمضي وقت طويل حتى تصدم بشاعة القضية الوجدان الروائي. غير ان الاستجابة، في هذه الحالة، ظلت متأخرة عمّا يحدث، اذا قورنت بحجم المأساة. فنحن، في الحقبة الاخيرة، لم نعثر الاّ على اشارات متناثرة لا تحمل على بنية الحدث في أي عمل روائي. وكان لا بدّ ان نصل الى الثمانينات لنعثر على رواية منشورة لفتحي غانم بعنوان «احمد وداود»، وأخرى غير منشورة لمحمد سلماوي بعنوان «الخرز الأزرق». وعدا هاتين الروايتين لا نجد أمامنا الاّ النص الفلسطيني.

النص الفلسطيني

نستطيع ان نعثر على ارهاصات الانتفاضة في الرواية الفلسطينية أكثر من غيرها. وهي ارهاصات تتراكم حتى نهاية الثمانينات، لتبدأ الانتفاضة بالفعل في كانون الاول (ديسمبر) ١٩٨٧؛ فاذا بنا تجاه سيل جارف من التحدّي العربي داخل الارض المحتلة.

وعلى هذا النحو، نصل الى الانتفاضة / الثورة. بيد ان هناك فترة تسبق ذلك، هي الفترة التي تعدّ تمهيداً للارهاصات وتأكيداً لها؛ وهي الفترة التي كتب فيها جبرا ابراهيم جبرا وغسان كنفاني قبل الثمانينات، وصولاً الى الفترة التالية حيث نصوص كل من اميل حبيبي وسحر خليفة.

لقد تحوّلت النبوءة الى حقيقة. وراح النص «الانتفاضي» يعبّر عن الواقع الجديد عبر نتاجه الفني واطاره الثوري الجديد. فلنتمل عند الفترة الاخيرة، فترة الارهاص، لما سوف يحدث في الفترة التالية لها. وهو الارهاص الذي يكون الابداع الروائي الفلسطيني، قادراً، أكثر من غيره، على تأكيده والتذكير به.

الارهاصات ـ النبوءة

والمناخ الذي تطوّر فيه الفكر الثوري قبل احداث العام ١٩٨٧ هو الذي صنع الارهاصات الاولى للانتفاضة. ومع ان هذه الارهاصات تعود الى بدايات هذا القرن، حين أحسّ الانسان الفلسطيني بأخطار المشروع الصهيوني لتحويل فلسطين الى دولة اسرائيل[٦]، فان النصف الثاني من هذا القرن، خاصة ينقل لنا توالي الضغوط الصهيونية بعد تحقيق مراحل كثيرة من هذا المشروع في الوقت الذي شهدت المنطقة العربية اخفاقات كثيرة في مواجهة المد الصهيوني ـ الغربي.

لقد عرفت المنطقة العربية الانكسارات تلو الانكسارات عقب نكبة العام ١٩٤٨. وكان علينا ان نتعامل مع عدوان العام ١٩٥٦، وانفصال العام ١٩٦١، وهزيمة العام ١٩٦٧، وأحداث الاردن في العام ١٩٧٠ وهجوم اسرائيل على بيروت وصيدا واغتيال ثلاثة من قادة المقاومة في العام